المحاضرةالثانية عشر: قيام الدولة السعدية ١٥٠٩-١٦٤٠م

أصل السعديين:

نشأت الدولة السعدية في المغرب الأقصى ويعود نسبهم إلى أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب ويقولون أن جدهم المولى زيدان بن أحمد كان يقيم في ينبع النخل في طريق المدينة المنورة فاتصل به أهل درعه في السوس واستدعوه للحصول على بركته في صلاح ثمارهم التي كان يعتريها العطب حسب تقليد كان جاريا في بلاد المغرب، فجاء واستقر في وادي درعة والسوس الأقصى دون تعيين زمن لقدومه. وهناك من ينسبهم إلى عرب من بني سعد بن بكر. وقد وكان نسبهم الشريف يكسبهم شيئا من الاحترام بين قبائل المنطقة.

هذا الاحترام ما دفع بقبائل المنطقة على مبايعة أحد زعماء السعديين، ويدعى " أبو عبد الله محمد السعدي الملقب بـ " القائم بأمر الله ٩١٦هـ_١٥٠٩م مؤسس دولتهم وأول سلاطينهم ،فأخذ يعد العدة لتصفية ما تبقى من أملاك الوطاسيين ثم التفرغ لمقاومة التحرشات البرتغالية ومهاجمتهم في مدينة اغادير، ولكنه لم ينجح في اقتحام المدينة ، ومع ذلك دان له اقليم السوس بالكامل تقريبا ثم انتقل إلى حاحة وهناك توفي .

الصراع السعدي الوطاسي وقيام الدولة السعدية:

بعد وفاة القائم (ابو عبد الله محمد السعدي) عام١٥١٧م خلفه ابنه احمد الأعرج وتولى أخوه محمد الشيخ منطقة السوس وقد تمكن السلطان السعدي أحمد الأعرج التخلص من يحيى بن تعففت حليف البرتغاليين عام١٥١٨ ، مما سهل من مهمة الاستيلاء على مراكش ١٥٢٣ وأصبح محمد الأعرج أميرا عليها ، وهذا ما أغضب كثيرا بقايا الوطاسيين فدخل معهم في صراع كبير، حيث قام السلطان الوطاسي أبو عبد الله بمحاصرة ومحاولة استعادة مراكش ولكن قيام عمه بالتمرد عليه في فاس اضطره للانسحاب و العودة إلى فاس .

ونظرا لكثرة مشاكل الوطاسيين اضطر أبو العباس أحمد بن محمد الوطاسي عام١٥٢٨ اضطر إلى عقد معاهدة صلح بينه وبين الأمير السعدي على أساس تقسيم البلاد على أن يكون للأشراف السعديين من تادلا إلى السوس ولبني وطاس من تادلا إلى المغرب الأوسط. ومنها بدأ نجم الوطاسيين في الأفول قابله سطوع نجم السعديين . إلا أن مجرى الأحداث لم يستقر على ذلك اذ نشب صراع طاحن عام١٥٣٩ بين احمد الأعرج وأخيه ابو عبد الله محمد الشيخ حاكم إقليم السوس و المؤيد من طرفهم مما ساعده في التغلب على أخيه الأعرج وبالتالي تخلص منه ومن أولاده ، و تمكن من استعادة ميناء أغادير عام ١٥٤١ . وقد شعر البرتغاليون بالخطر الذي يهددهم من السعديين لذا أخلو مدينة اسفى ، ازمور ، اصيلا ، دون قتال ١٥٤٢.

بعدما استقر الأمر لأبو عبدالله محمد الشيخ في مراكش اتجهت أنظاره إلى الشمال فاستولى على مكناسة الزيتون عام١٥٤٨م، وطرد البرتغاليين من أصيلا والقصر وحصر تواجدهم في طنجة وسبتة ومليلة ثم اتجه الى " فاس" وفرض عليها حصارا شديدا إلى أن دانت له عام ١٥٤٩ وقبض على ما تبقى من الوطاسيين فيها .

وفي هذه الأثناء أرسل السلطان العثماني سليمان القانوني رسولا يطلب من الأمير محمد الشيخ بأن يعلن الولاء والطاعة من خلال ذكر اسم السلطان في خطبة الجمعة فرفض الأمير السعدي بل تطاول بلسانه على السلطان فاكسب لنفسه عداء العثمانيين .

أثناء حصار فاس تمكن الحاكم الوطاسي " أبا حسون " من الفرار إلى الجزائر العثمانية " الاتراك " ولم تسلم حتى مدينة تلمسان منه عام ١٥٥١. ولكن الأتراك طردوه منها ووقف بيلرباي الجزائر علج علي مساندا أبا حسون على استعادة مدينة فاس عام ١٥٥٤ ، ليفر منها محمد الشيخ إلى مراكش ويعيد الهجوم عليها ويسترجعا ويقتل أبا حسون. وبمقتل هذا الأخير سقطت دولة بني وطاس نهائيا وأصبحت بلاد المغرب الأقصى تحت سلطة السعديين .

غضب العثمانيون كثيرا لمقتل أبا حسون الوطاسي، فأردوا الانتقام له من السلطان محمد الشيخ بأن دبروا له مكيدة في عام ١٥٥٧، فأرسلوا له بضع عشر من الرجال الى المغرب على أساس أنهم فارون من حكام الأتراك فوثق بهم محمد الشيخ وقربهم منه وفي إحدى الليالي وهو مقيم بجبل درن " موقع أكد كال " وهو غائص في نوم عميق انقض عليه هؤلاء الأتراك وقتلوه وقطعوا رأسه واخذ إلى الباب العالي وعلقت على باب القلعة.

ويمكن تحديد سياسة محمد الشيخ الداخلية والخارجية فيما يلي :

- يعود له الفضل الكبير في وضع الأسس والدعائم الاولى للدولة السعدية .
- كراهيته للأتراك وشعوره بالضعف العسكري أمام قوة الأتراك المنظمة.
- التحالف السعدي مع الاسبان (بوهران) ضد الأتراك.
- فرض ضرائب كبيرة على الرغبة مما أثار ضده القبائل في الجنوب والجبال.
- استعمال القوة والبطش مع معارضيه من زعماء القبائل والمرابطين.

الغالب بالله:

بمقتل محمد الشيخ خلفه ابنه أبومحمد عبدالله الغالب بالله(1557 – ١٥٧٤م) انتقل هذا الأخير إلى مراكش لأن أنصار الأتراك قد كثروا بمدينة فاس. وزاد تعاونه مع الاسبان تنازل لهم عن ثغر بادس عام ١٥٥٦م، والحق هزيمة بالعثمانيين بالقرب من فاس عام ١٥٥٧ ، في الحملة التي كانت بقيادة حسن بن خير الدين.

وتمكن في عام 1561 من افتتاح شفشاون ومحاصرة البريجة وهي من مدن المغرب الخاضعة للبرتغاليين وذلك عام1562 ولكنه لم ينجح في فتحها، وبعدها انصرف إلى الاهتمام بالعمران كبنائه لجامع الأشراف بمراكش وتجديد بناء مدرسة بن يوسف، وفي الكثير من الأحيان ما تحالف مع الاسبان ضد الأتراك أو الغدر بالأندلسيين ، حتى بعض أفراد من أسرته لم يسلموا من القتل والتنكيل بهم فهرب ثلاثة من إخوته وهم: "عبدالملك ، احمد المنصور ، وعبدالمؤمن".

الصراع على العرش:

لما توفي السلطان عبدالله الغالب بعد مرض أصيب به عام١٥٧٤خلفه على العرش ابنه محمد المتوكل (١٥٧٤-١٥٧٦). وجاء في الكثير من الروايات المدح فيه؛ مثلما جاء في كتاب الدولة السعدية التاكمادية لمؤلف مجهول بان السلطان المتوكل كان سخيا معطاء مع الفقهاء والفضلاء والمساكين والضعفاء على حد السواء، وكان متفقدا لأحوال الرعية عادلا بين الناس وكل مساعيه محمودة ، ماعدا إتيانه بالنصارى لوادي المخازن، وهناك من يقدح فيه ويصفه انه كان متكبرا غير مبال بأحد كثير السفك بالدماء شديد العسف على الرعية فكان شره مردود عليه بان نجح عماه عبدالملك المعتصم واحمد المنصور في الحصول على دعم الترك لهما بعدما شاركا الأتراك في تحرير تونس من الاسبان وإنهاء حكم الحفصيين منها١٥٧٤ . ويعود الفضل في ذلك أيضا إلى جهود البيلرباي العلج علي الذي سعى جاهدا إلى توحيد الصفوف بين الأتراك والمغاربة من اجل طرد الاسبان نهائيا من شمال افريقيا.

في عام ١٥٧٦ تمكن عبدالملك من التغلب على ابن أخيه "المتوكل" الذي لجأ إلى الجنوب ثم توجه إلى الاسبان لطلب المساعدة فلم يجدها ومنها توجه إلى ملك البرتغال الدوق سبستيان (١٥٥٧-١٥٧٨) لطلب العون منه والذي وافق دون تردد.

معركة وادي المخازن 4 أغسطس 1578م:

قاد الملك البرتغالي شخصيا الحملة الصليبية المؤلفة من ٢٥ألف مقاتل معظمهم من البرتغاليين وبمشاركة بعض الإسبان والايطاليين والألمان وبمباركة من البابا ، وبعضا من المغاربة من أنصار المتوكل، ونزل الجيش دون مقاومة في طنجة وشنّ الغارة على سواحل المغرب الشمالية " تطوان والعرائش "وتقدم الجيش نحو القصر الكبير، فتصدى له جيش عبد الملك " بمشاركة الأندلسيين والعثمانيين "...وكان يفوق الجيش البرتغالي في

العدد إذا كان يتألف من 52 ألف مقاتل جلهم من الفرسان، وقد نجح عبدالملك بخبرته العسكرية إلى استدراج الحملة البرتغالية الى المناطق الداخلية (وادي المخازن) مبتعدا عن السواحل البحرية حتى يسهل تشتيت صفوفها واهلاكها وقد نجح في ذلك .

وقد ترتب عن معركة وادي المخازن ٩٨٦هـ الموافق لـ ٤اكتوبر ١٥٧٨م عدة نتائج وانعكاسات، نذكر منها ما يلي:

- مقتل الملوك الثلاثة عبدالملك، المتوكل، وسبستيان .
- وقع في الأسر ما يزيد عن١٤٠٠٠ جندي برتغالي والذين تمّ افتداؤهم باموال كبيرة.
- تحطم معظم القوات البرتغالية مما مكن ملك اسبانيا "فيليب الثاني" من ضم البرتغال إلى مملكته عام١٥٨٠م،وضم مدينة سبتة .
- استعادة الدولة السعدية مكانتها وهيبتها الدولية تحت قيادة السلطان احمد المنصور .

الدولة السعدية في عهد السلطان احمد المنصور "الذهبي" ١٥٧٨-١٦٠٣:

بعد معركة وادي المخازن بويع احمد المنصور سلطانا على المغرب ،اما المتوكل فقد اخذت جثته وسلخت وملئت تبنا وحملت وطوفى بها في المدن والقرى المغربية حتى يبقى عبرة لغيره ،ومن ذ لك الحين أصبح "المتوكل" يلقب بالمسلوخ . وفي عهد المنصور شهد المغرب استقرارا قلما عرفه ،وذلك راجع الى شجاعته وسعة ثقافته وحنكته الدبلوماسية والإدارية ، كما عمل على تقريب العلماء والفقهاء من مجلسه ،لذا قال عنه الفشتالي حول سياسته الحكيمة :

" ثم جاء الله بمولانا الإمام المنصور ... الماهر والحكيم المدبر الباهر ..ويؤلف الطباع الشاذة فلمَّ الشّعثُ وجبر الصدع ..ورتب الالقاب ووافى بحسن سياسته وحميد سيرته بين العرب والعجم رحمه الخدمة الواصلة ..واصطفى من العجم موالي انبتتهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة.. ".

لقد فرض المنصور مركزية القرار فكان متطلعا على اخبار النواحي وله عيون في جميع بلاد المغرب الاقصى ،شديد الحر دائم الاتصال باعوانه باساليب في غاية السرية . كما تميز عهده ايضا بسواد العدل والسير على قوانين الشرع ومناهج السن ،وكثرت مشاريعه العمرانية منها بناء "قصر البديع" بمدينة مراكش وحشد له امهر الصناع وجلب له الرخام من اوربا وتنافس الشعراء بمدح هه التحفة الرائعة ومنهم عبدالعزيز الفشتالي قائلا :

كل قصر بعد البديع ندم فيه طاب المجنى وطاب المشم

ان مراكشا به قد تباهت مفتخرا فهي للعلا الدهر تسمو

وهذا، دون ان ينسى بقية المدن الاخرى فانشأ بمدينة فاس برجين كبيرين(البستيون) ،واعاد بناء سد واد فاس وبناء الحصون .وانشأ معاصر السكر في مراكش وبلاد حاحة لدرجة ان تمكن من تصديره الى ايطاليا وبعض الدول الاوربية الاخرى مقايضة بالرخام.

تنظيم الجيش:

اهتم كثيرا بتنظيم الجيش والأسطول البحري ،فكان الجيش يتشكل من قسمين وهما:

- الجيش النظامي الحديث : شكلت عناصره الأساسية من الأتراك ،العلوج والأندلسيين ،ويعتمد على الأسلحة الحديثة المصنوعة محليا او المستوردة من أوربا ،وسمي بعسكر النار.
- الجيش التقليدي : شكلت عناصره من الأفراد المجندين لأبناء القبائل الموالية له ،ويعتمد على الأسلحة التقليدية غير النارية (السيوف–الرماح) ، ويسمى بعسكر الأسنّة .

وما يلاحظ أن نظم الدولة في عصره سواء في الجيش أو الإدارة وغيرهما قد صبغت بالصبغة التركية ،فأصبح نفوذ الأتراك في إدارة المخزن والجيش كبير وانتشار ظاهرة اللباس التركي في الأوساط المغربية. كما اعتنى المنصور بأمر الأسطول البحري وأوكل أمره إلى ابرز القادة البحرية وهو الريس إبراهيم الشط ،الذي جعل مركز قيادته في

ميناء العرائش. ومن ابرز الشخصيات العسكرية التركية والأندلسية التي أولاها قيادة الفرق العسكرية نذكر منهم: مصطفى باي قائد الإصباحية المكلفون بحراسة السلطان ، والباشا محمود الحامل والحامي لمفاتيح خزائن بيت المال ،والقائد علوج قائد جيش العلوج والباشا جؤذر قائد جيش الأندلس.

اهتم المنصور بالاحتفال بالأعياد الدينية احتفالا لم تشهد له دول المغرب مثيل من قَبْلُ كما حرص على التظاهر بالمظاهر الأبهة والفخامة في حله وترحاله، فكانت خيمته أشبه بقصر كبير.

سياسته الخارجية :

كان لنتائج معركة وادي المخازن وقع كبير في المسامع الدولية اعتمدها المنصور في توظيفها في سياسته الخارجية حيث بهذا الانتصار وفدت إليه الوفود محملة بالهدايا الثمينة وانتهز الظروف الدولية المساعدة في بروز هيب الدولة السعدية حيث كانت الكثير من الدول تطلب وتلتمس المساعدة المغربية.

١/-علاقته مع العثمانيين :

بادر المنصور بعد أن تمت له البيعة بأن أرسل رسولا إلى السلطان العثماني برئاسة احمد بن يحيى الهوزالي . وقد طالب السفير العثماني من المنصور تعيين إسماعيل بن عبد المالك حاكما عل فاس ولكن المنصور رفض الرد عليه كما حدث أن تمرد وتآمر القادة الأتراك في جيشه ونادوا بأحقية اخيه عبد المؤمن بالسلطة وبقيت العلاقات بين مد وجزر ولم ترق إلى العداء ولا إلى الود . وفي أواخر عهد المنصور تحسنت العلاقة بينه و بين السلطان العثماني بسبب انشغال السلطان العثماني بالحرب مع النمسا ومشاكل البلاد العربية وتبدل الوضع في الجزائر بسبب الاضطرابات الداخلية.

٢/- مع بلاد السودان:

لقد توثقت العلاقات بين بلاد السودان والمغرب الأقصى منذ القرن11 عهد دولة المرابطين واسهم سلاطينها بنشر الإسلام بين سكان بلاد غانة والنيجر وذلك عن طريق البعوثات الدينية . وكان للعلماء والفقهاء المغاربة دورا هاما فين شر الإسلام والتقاليد المغربية في مدن ولاته و تنبوكتو و كاغوا . وفد عهد المنصوراعاد فتح السودان الغربي بتسييره حملة إلى الصحراء السودانية سنة ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م ، استولى على اثرها على بلاد تيكودارين وتوات، وقد أوفد ملك بورنوا وكان مسلما وفدا وهدايا إلى المنصور وطلب إمداده للقيام بحركة جهادية لنشر الإسلام بين القبائل السودانية فاشترط المنصور أن تكون الحركة باسمه على اعتباره خليفة المسلمين فوافقه هذا على ذلك وأمده بالمال والرجال والسلاح وتمكن هذا من نشر الإسلام في الصحراء السودانية الكبرى

ثم اخضع مملكة كاغوا بافريقيا الوسطى وتعهد ملكها اسحق بالخطبة للمنصور وأداء الجزية السنوية إليه سنة999 هـ/1582 م ، وهكذا غدا سلطان المنصور نافذا فيما بين بلاد النوبة شرقا إلى المحيط الأطلسي غرب، وانتظمت الممالك السودانية في طاعته عام 1590م بعد القضاء على أخر مقاومتها بزعامة آخر ملوك سنغي إسكي نوح ، وحملت إليه أحمال التبر والذهب من السودان لأجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان خزانه بالذهب .

٣/- علاقة المنصور مع اسبانيا :

كلما توترت العلاقة العثمانية مع السلطان المغربي المنصور قابله تحسن في العلاقة بين المغرب واسبانيا . وكلما تحسنت العلاقة مع الجهة الإولى توترت في الجهة المقابلة وكان للاسبان طموح بضم العرائش بعدما ضمت ممتلكات البرتغال عام ١٥٨٠ ومنها مدينة سبتة.

وكانت اسبانيا تعمد إلى أسلوب التهديد حينما تماطل في مدحها العرائش ، بأن قدمت المساعدة إلى الأمير السعدي الناصر (أخ المتوكل) للثورة على المنصور وقد بذل المنصور جهدا كبيرا للقضاء عليها.

٤/-علاقة المنصور مع انجلترا :

وافق عهد المنصور عهد الملكة اليزابيث وهو العهد الذي عرف نشاط التجار البحرية والنشاط الاستعماري البريطاني على نطاق واسع . وكان العداء بين انجلترا المتزعمة لمعسكر البروستانتي واسبانيا المتزعمة لمعسكر الكاثوليكي فكان الاسبان يحضرون لغزو انجلترا عام ١٥٨٨ بينما كانت الملكة اليزابيث تسعى لتحري البرتغال من الإسبان وتنصيب أمير موال لها (الدوق انطونيو). فسعى الطرفين الى كسب المغرب لتحقيق طموحاته .

كانت اسبانيا تطمح لإقامة علاقات سياسية تجارية مع المغرب بينما سعى المغرب الى تطوير اسطوله البحري وجلب الأخشاب الجيدة من انجلترا، مما ساهمت هذه العلاقة في إنشاء انجلترا لشركة بلاد البربر ١٥٨٥ ومطالبة بالحصول على ميناء "العرائش" .

٥/- العلاقة مع فرنسا :

كانت فرنسا منشغلة بالحروب الدينية والتدخل الاسباني في شؤونها ، ولكن بمجيء عهد الملك الفرنسي هنري الرابع الذي تمكن من القضاء على الحروب الدينية وأمن الاستقرار في فرنسا وبدأ يهتم بالمغرب ويسعى لربط العلاقات التجارية معه .

نهاية عهد المنصور :

تميزت السنوات الأخيرة من عهده بانتشار الطاعون والجفاف سبع سنوات فهلك الكثير من السكان وتمرد ابنه المأمون الذي كان حاكما على فاس ووليا للعهد ، فمات المنصور حزنا وغيضا عام ١٦٠٣.

نهاية الدولة السعدية :

بعدما وصل المغرب في عهد المنصور الى أوج قوته وازدهاره فقد امتد الى السودان ونجح في الحصول على الذهب ، واحتكار التجارة الصحراوية ولم تمض بضع سنوات

على وفاته حتى تدهور مركز المغرب الاقتصادي بسبب الحروب الأهلية والمنافسة الأجنبية.

فكانت في عهده ينتظر قدوم قافلة سنوية تجلب إلى مراكش ضرائب السودان وبعد وفاته أصبحت لا تصل إلى المغرب إلا قافلة واحدة كل ثلاث سنوات ، بل تحولت تلك القوافل نحو مصر والإيالات العثمانية في بلاد المغرب (تونس، ليبيا ، الجزائر).

وبعد وفاة المنصور عام ١٦٠٣ بدأت مرحلة التفكك نتيجة الافتتان على السلطة بين أبناء المنصور وهم زيدان والمأمون وأبا فارس خلال الفترة ١٦٠٣/١٦١٠ ثم امتدت إلى أبنائهم إلى أقصى العلويين على نفوذهم نهائيا عام ١٦٥٩.

وقد أدى جو الاضطراب إلى نتائج وخيمة تمثلت في ما يلي :

– مقتل الكثير من جيش المنصور النظامي والكثير من سكان مدينتي فاس ومراكش على الخصوص.

– انقسام المغرب إلى مملكتين شمالية وعاصمتها فاس للمأمون وبنيه ، وجنوبية عاصمتها مراكش لزيدان ثم لبنيه.

– استئناف الاسبان لغزوهم للموانئ المغربي وتمكنهم من احتلال ميناء العرائش عام ١٦١١م بتواطؤ من المأمون ، ثم ميناء المعمور عام١٦١٤م.

– اضمحلال المملكتين المتنازعتين مما هيئهما للسقوط وقد اختفت مملكة فاس في سنة ١٦٢٧، على يد أنصار المجاهد محمد ابن محمد الزياني المعروف بالعياشي ، أما مملكة مراكش فانتهت على يد كروم الحاج شيخ عرب الشبانات عام ١٦٥٩ بعدما قتلوا آخر سلاطين السعديين أبا العباس أحمد .

– تنامي دور الزوايا المرابطي خاصة في الجنوب وتحكمها في ملتقى طرق التجارة الافريقية عبر الصحراء ، ومن بين زعماء شيوخ تلك الزوايا ابو المحلي (احمد بن عبد

الله السجلماسي) والمرابط يحيى بن عبد الله الحاحي ثم ظهور مرابط اخر هو ابو حسون السهلالي . وتنامي دور الزاوية الدلائية في الشمال والوسط إلى أن تمكن العلويون منهم .